

البيان عند عبد القاهر الجرجاني

د. بيان شاكر جمعه

جامعة الأنبار - كلية التربية

المشروع أو ما يشبه التمهيد

طالما راود ذهني تساؤل محير يقول: لم يا ترى ليس لدينا نقد عربي معاصر يمثلنا؟ ما دمنا موجودين فهل يمكن أن يوجد بالتالي نقد لنا؟ نقد بعيد من المذاهب والاتجاهات النقدية الغربية المعاصرة وبعيد في الوقت ذاته من المذاهب النقدية التقليدية العربية، قريب في كل آن منا ومنا نحن فقط؟ أعلم تماماً بأن الـ (نا) هذه هي خليط عجيب لكل ما هو غربي وكل ما هو عربي أيضاً ولكن الخليط له سماته المحددة التي لن تكون بالتالي لا الغربي ولا العربي، ليس المشروع أكثر من حلم يبرز في وقت تلوح الأزمة فيه وهي تقترب من الحد الكارثي.

هل يمكن اليوم الحديث عن نقد عربي معاصر كهذا في وملاحه؟ لا بد أن المعترض هذا السبيل سوف يلاقي مشكلات جمة تعترضه من قبيل: وما الذي سنفعله لنحقق هذه الرغبة؟ وكيف سنجتاز كلاً من الاتجاهين في النقد؟ وكيف سنجد ما يمثلنا؟ فأقول بأن الخطوات يتبع بعضها بعضاً وأن التجاوز لها يتم عبر الرغبة في التجاوز ذاتها وسرعان ما ستتضح أماننا الطول الأخرى واحداً بعد الآخر.

لقد توجهت مباشرة إلى الجرجاني لأنه يمثل المركز بالنسبة لتراثنا العربي ولأنني قد درست التراث العربي في حقبة الأولى في أطروحتي للدكتوراه (الخطاب البياني العربي حتى القرن الرابع الهجري) على الرغم من أنني لا أتفق اليوم مع كل ما قدمته هناك إلا أنني لا يسعني الرجوع اليوم وأفضل الاستمرار مستقيماً ومحوراً من ذاتي بتحور الخطاب المدروس.

نعم كان ثمة بلاغيون آخرون ولكنهم تابعوا ولم يضيفوا ما يمكن أن يعيد التوزيع والتعريف ويبدع اصطلاحات جديدة وفق منهج في التفكير جديد، وكان علينا أن ننتظر مجيء الجرجاني ومن بعده السكاكي والقرطاجني ولكي نتوقف بعد ذلك ونستند كلياً إلى الجرجاني فقط فهل يمكن أن يستمر الحال على هذا حتى اليوم؟ أفلا يمكن إعادة التفكير في الجرجاني؟ وأعني أن نحلل ما يريد قوله، وأن نتجاوزه كما تجاوز بيان الجاحظ؟ ربما.

أنتج الجرجاني في كتابيه (أسرار البلاغة في علم البيان) و (دلائل الإعجاز في علم المعاني) وهو بذلك أول من يجعل التأليف في البلاغة العربية على جزئين بحيث يكون كل جزء منفصلاً عن الآخر انفصلاً تاماً وبحيث يتناول في كل جزء قضية واحدة وهو ما يعني أنه شطر البلاغة إلى نصفين متوازيين تماماً غير متساويين تماماً وهذا ما يبعث على التساؤل حول السبب والجدوى؟ فالبلاغيون الذين سبقوه ألفوا كتبهم بوحدة واحدة سواء استغرق ذلك جزءاً واحداً أم أجزاء متعددة.

ورتب كتابيه بحيث كان أسرار البلاغة الجزء الأول والدلائل الكتاب الثاني بليل أنه يشير في الدلائل إلى ما ورد في الأسرار وليست لدينا أية إشارة معاكسة^٣، والسؤال الذي ينطرح أمامنا يقول: لم يا ترى رتب الجرجاني كتابيه هذا الترتيب؟ وهو سؤال يمكن أن نجيب عنه بعد الاكتمال من البحث.

وضع لنا الجاحظ البيان في صورته الأولى التي لم تكن تخلو من أمور تنقصها ومن أمور لم تعد تمثلنا، ولكنه وضعه في كتابه البيان والتبيين فكان بذلك أول من يتناوله بالبحث والتفصيل إذا استبعدنا تلك الإشارات المتناثرة التي كانت تشير إليه لدى مؤلفين كالمبرد وابن المعتز والشافعي^١ وغيرهم وهي إشارات كانت تعي تماماً أهمية الموضوع ولكنها كانت تروم غيره أو أنه كان عندهم كأمر ليس من اختصاص بحوثهم.

وضع الجاحظ بيانه بكثير من الجرأة وقليل من التوفيق فقد تصدى للموضوع وكأنه بذلك وضع حجر الأساس في حقبة افتتاحية للتفكير العربي عموماً ولكن التوفيق جافاه حينما لم يفسر لنا أركانه البيانية (اللفظ والخط والإشارة والعقد والنسبة)^٢ وحينما قصر اللفظ على جرسه والخط على شكله والإشارة على اليد والعين والحاجب والعقد على العقد بالأصابع والنسبة على الحال الناطقة بغير لسان.

وجاء بعد الجاحظ الكثير من البلاغيين الذين لم يفسروا ما قصده وربما لم يفهموه وكان علينا أن ننتظر الجرجاني ليحلّ اللغز ويبين أكثر من الجاحظ بيانه فعمد إلى الأركان يعيد توزيعها فجعل النسبة تدل على العالم الحقيقي أو الحقيقة، واللفظ والخط على العالم اللفظي، والإشارة والعقد على العالم العقلي وأضاف إليها عالماً سماه التخيل، وهكذا شطر الجرجاني أركان البيان وأضاف إليها ركناً جديداً، مستبعداً العالم الحقيقي وجاعلاً البيان لفظياً وعقلياً وتخيلياً.

القارئ عندما يعثر على لفظين متضادين فإنه يُعمل فكره في هذا التضاد ويقوده إلى تخيل أو توهم التضاد وموقعه وفائدته بل أنه يلذ لهذا التضاد على الرغم من أنه يتم على مساحة واحدة هي مساحة النص أو مساحة المكان الذي يجمع الأشياء .

الحضور والغياب لم يكونا يعينان عند الجرجاني حضور عناصر لفظية محددة وغياب أخرى لفظية محدد أيضاً بل كان يعني أيضاً حضور ألفاظ وغياب معانٍ تفوق عدد الألفاظ وبعبارة أخرى فإن ثمة ألفاظ تقتضي أكثر من معنى واحد وهذه المعاني غائبة عن النص ويحضر بدلاً عنها لفظ واحد فقط وهذا ما نلقيه في الحشو والتجنيس والتشبيه على الترتيب.

ولكن الجرجاني يركز نظره على فنون ثلاثة وهي المجاز والتشبيه والاستعارة وفي الحقيقة فإنه يركز نظره على فن واحد وهو التمثيل وهو ما سيأتي بيانه لاحقاً، وبصدد الفنون الثلاثة فقد رتبها مبتدئاً بالاستعارة لينتقل إلى التشبيه ومن ثم إلى المجاز وترتيبه هذا إنما كان لداع لم يذكره فقد قال : "واعلم أن الذي يوجبه ظاهر الأمر وما يسبق إليه الفكر أن نبدأ بجملة من القول في الحقيقة والمجاز ونتبع ذلك القول في التشبيه والتمثيل ثم ننسق ذكر الاستعارة عليهما ونأتي بها في أثرهما وذلك أن المجاز أعم من الاستعارة والواجب في قضايا المراتب أن نبدأ بالعام قبل الخاص والتشبيه كالأصل في الاستعارة وهي شبيه بالفرع أو صورة مقتضية من صورة إلا أن ههنا أموراً اقتضت أن تقع البداية بالاستعارة. حتى إذا عُرف بعض ما يكشف عن حالها.. عُطف عنان الشرح إلى الفصلين الآخرين" ١٣ فلم يذكر لنا لم رتبها هذا الترتيب على الرغم من أنه يسوق مقمماً الواجب الذي يعرفه جيداً والذي يلم يلتزم به.

لقد غادر الجرجاني الترتيب الواجب واتجه إلى ترتيب جائز أو ترك ما يسبق إليه الفكر ليتبع ما لا يتوقعه الفكر وهذان الاصطلاحان (الواجب والفكر) يحيلاننا إلى ما كان متعارفاً عليه من الابتداء مما هو عام ومما هو أصل مفضلاً الابتداء بالخاص وبالفرع أو الصورة، وهو نمط تفكير الجرجاني ومعاصريه فقد كانوا يبتدئون في بحثهم من الجزئي نحو الكلي ومن الخاص نحو العام على العكس من الحقبة السالفة التي عاصرها الجاحظ ومجايلوه والذين كانوا ينطلقون من العام نحو الخاص ومن الأصل نحو الفرع، مع الجاحظ كان التفكير تركيبياً أي أنه يمتلك مقدمات وأصول يذهب ليستقصي فروعها ونتائجها بينما انتقلت حقبة الجرجاني نحو التحليل أي الانطلاق مما هو موجود أو من الفروع متخذاً طابعاً استقرائياً لا استنتاجياً" ١٤.

إن الانطلاق من المجاز يعني الانطلاق مما هو أقرب إلى الأشياء أو إلى الوجود في سطحه البكر قبل دخول الكلمات عليه فما كان الجرجاني يفعله أنه ينطلق من الصورة أو من الفرع بينما نريد نحن الانطلاق من الأصل متخذين انطلاقة الكاتب أو الشاعر أمثلةً لنا ومقلدينه في ذلك لنفهم كيف استطاع خلق نص من لغةٍ بكرٍ، ثم أن اللغة البكر هذه هي فرع دوماً فليس

يحدثنا الجرجاني في هذا الكتاب) أسرار البلاغة والذي يتناول في البيان (عن عدة أمور فصل القول في بعضها وترك البعض الآخر دونما تفصيل وإذا اقتصرنا على ما ذكره، كان كافياً لنستنتج الفكرة العامة التي يدور حولها الكتاب ويأتي ما لم يفصل فيه ليؤكدنا، لقد تناول ثلاثة مفاهيم وهي المجاز والتشبيه والاستعارة وهي تدور حول فكرة الحضور والغياب فثمة عناصر لغوية حاضرة تشير إلى أخرى غائبة عن النص، وما لم يفصل فيه كان التجنيس والحشو والطباق والحذف بل أنه حينما ذكر التطبيق (أي الطباق) مع الاستعارة قال بعدهما "وسائر أقسام البديع" ٤ "وأعتقد أن هذه الفكرة تحتاج إلى إثبات في بعض أجزائها وما أنذا أتيك.

أن تدور الاستعارة والمجاز والحذف حول الحضور والغياب فأعتقد أن هذا مما لا شك فيه إذ أن لدينا عناصر مذكورة تشير إلى أخرى محذوفة ولكن أن يكون التشبيه منخرطاً في الفكرة ذاتها فهو أمر يحتاج إلى بيان، وبيانه أنك تشبه بين عنصرين وكلاهما حاضر في النص ولكن وجه الشبه غائب فليس المقصود أن عنصرًا لغويًا غائب بل أن ثمة ما هو غائب عن النص يفسر الحاضر منه بدليل أنه في حديثه عن التشبيه لم يذكر لنا أي مثال ولم يتحدث مطلقاً عن التشبيه الذي يُذكر معه وجه الشبه وذلك أن هذا الشكل من التشبيه لا يعود فناً بلاغياً بل يصبح تقريراً ومن هنا ربما سمي التشبيه محذوف المشبه ووجه الشبه والأداة بالتشبيه البليغ" ٥ .

وبالنسبة للتجنيس فإنه أن تُذكر كلمتان متشابهتان في ألفاظهما ولكنهما مختلفتان في معنييهما وهذا الاختلاف يوجب التوهم أولاً بأن الكلمة تكررت ولكن إتمام القراءة يكسبها معنىً مختلفاً" ٦ "وقد استعمل اصطلاح التوهم في تقسيمه للتجنيس" ٧ "فضلاً عن أن الشرط فيه هو أن لا يكون " مرمى الجامع بينهما بعيداً" ٨ " أي العلاقة الغائبة بين طرفي التجنيس.

وأما الحشو فإن " مجنيه مجيء ما يُعول في الإفادة عليه ولا طائل للسامع لديه فيكون مثله مثل الحسنة تأتيك من حيث لم ترقبها" ٩ " أي إذا أفاد ما لم يكن متوقعاً وهذا يعني أنه يعمل على مفاجأة القارئ حينما تُذكر عناصر لغوية لم يكن يتوقعها ولكنه بعد أن يجد فائدتها يجد بأنها ظريفة بل لازمة في هذا الموقع وهذا ما يُذكي التوهم أيضاً، وقد ذكر الجرجاني في نهاية الكتاب الحذف والزيادة" ١٠ " ولم يعد الزيادة من هذا الضرب، ومن الجدير بالذكر ملاحظة المقارنة بين الزيادة والحشو فالأول يعني زيادة كلمة واحدة في النص بينما يعني الثاني حشو كلام مكتمل، وزيادة كلمة لا تقيد بينما زيادة كلام لم يكن متوقعاً مفيداً ثم أنك لا تتوقع أو تتوهم التوهم ذاته مع الزيادة فزيادة كلمة لا تعني شيئاً ولا يمكن أن تظهر في مكان لم يكن متوقعاً منها والحذف أمره بَيِّن فالكلمة المحذوفة تشير إلى معنى غائب.

وأخيراً فالتطبيق وهو " مقابلة الشيء بضده" ١١ " وقد قال عنه بأن " كونه معنوياً أجلى وأظهر" ١٢ " وهذا ما يحدونا إلى القول بشكل عام بأن

أصلها الذي وضعت له في وضع واضعها^{١٨} أو استعمال كلمة في غير موضعها الحقيقي لعلاقة بين الموضع والكلمة، والعلاقة قد تكون المشابهة وقد تكون التمثيل كما سيأتي بيانه.

هذا على مستوى اللفظ وأما على مستوى الجملة فالأمر نفسه مع ما سبق من حد الحقيقة فلدينا هنا ركنا الإثبات والمثبت والإثبات يكون في الركن الثاني الذي وقع عليه الفعل نحو زيد في قام زيد والمثبت هو الركن الأول وهو الفعل أو الصفة في نحو قام زيد وقائم زيد، فإذا كان الإثبات قد زال عن موضعه الذي ينبغي أن يكون فيه وإذا كان المثبت قد عدل عن الحقيقة فهي مجاز، وإذا أُلقي الزوال هذا في الجانبين معاً فكلاهما من المجاز وإذا زال أحدهما فقط فهو مجاز والآخر حقيقة.

والمجاز المفرد له قسمان أولهما المجاز القوي وثانيهما المجاز الضعيف حسب نوع العلاقة بين الموقع واللفظ المجازي فإذا قلت رأيت أسداً تريد رجلاً شجاعاً كالأسد فإن هذا من النوع القوي لأنك لا يمكنك أن تدفع من أمام عينيك أن ثمة معنى من الأسد الحقيقي حصل للرجل، أي يجب أن تضع السبع بين يديك ضرورةً والعلاقة بين الرجل والأسد هنا علاقة مشابهة مبالغ فيها بينهما، ومن هنا تتفرع الاستعارة عبر التشبيه.

والنوع الثاني من المجاز هو المجاز الضعيف وذلك كاليد للنعمة وليس ثمة مشابهة بين اليد والنعمة لكي يُستساغ استعمالها بدلاً من النعمة بل أن العلاقة سببية فاليد هي سبب النعمة ولذا جاز إطلاقها بدلاً منها، والدليل كما يقول الجرجاني أن هذا الاستعمال لا يمكن إلا عندما نذكر صراحةً أو تلوياً المنعم صاحب النعمة وبذلك أنه لا يمكن استعمالها في كل مكان إلا بذكر المنعم فلا تقول "أقتني يداً" وتعني نعمة ولا "اتسعت اليد" وتعني النعمة ويمكن أن تقول "أنال يده" أي اتسعت نعمته تتحدث عن معروف بالإنعام^{١٩}، وهو يسمى هذه العلاقة علاقة الأثر أي أننا يجوز أن نستعمل المجاز بين كل لفظين لأحدهما في الآخر أثر ما فالإصبع للعمل بعناية والخاتم بدلاً من الختم وعلى العموم فعلاقة الأثر تعني أن يسبب الأول الثاني فيأخذ الثاني اسم الأول مجازاً، ويبدو أن هذه العلاقة كلما كانت أقرب وأوضح كانت أكثر انتساباً إلى فن آخر هو التمثيل بدلاً من التشبيه فإذا كان القسم الأول يعتمد على المشابهة فالقسم الثاني هذا يعتمد على المثل أو التمثيل فاليد التي استعملت للنعمة قد تستعمل للقدرة أيضاً وهناك لم يصرح الجرجاني بأن العلاقة بين اليد والنعمة علاقة مثل ومع القدرة صرح بذلك فقال: "وأما إذا أريد باليد القدرة فهي إذن أحسن إلى موضعها الذي بدئت منه وأضربت بأصلها لأنك لا تكاد تجدها تراء معها القدرة إلا والكلام مثل صريح... فمن الصريح قولهم فلان طويل اليد يراد فضل القدرة... وذلك أن الشبه مأخوذ من مجموع الطول واليد مضافاً ذلك إلى هذه^{٢٠}" وهذا يعني بشكل عام بأن المجاز إما أن يكون علاقته المشابهة أو التمثيل وفي أولهما فإنه ليس ثمة علاقة بين

لدينا سوى اللغة التي نتناولها بالعمل وهي لغتنا اليوم شككت ورُكبت انطلاقاً منّا، والجرجاني كان يتوهم أن العالم موجود مستقلاً وأن اللغة أداة لصياغته بينما نفكر اليوم أن اللغة موجودة وأننا نصوغها وتصوغنا في الآن ذاته، وهي لغة عصرنا أو حقبتنا نحن، وليس علينا سوى الانطلاق منها.

من المؤكد أن للجرجاني فضلاً كبيراً يتمثل في إخراج الاستعارة إلى السطح من بين ركائها الثقيل وإعادة تعريفها بها ولكنه بإرادته جعلها كل شيء مع التمثيل قادنا نحو سجن الحضور والغياب وأبعدنا تماماً عن الحضور بجعله الغائب مفسراً للحاضر ومتسلطاً عليه، أن الألوان لنقلب المسألة ونعيد للحضور هيئته التي أضاعها الجرجاني.

١ - المجاز

يقارن الجرجاني بين الحقيقة بالمجاز والذي اضطره إلى وضع تعريفين لهما، ولم يكن مضطراً إلى ذلك في الاستعارة والتشبيه، ثم اضطر إلى مقابلة الحقيقة بالمجاز ثم أنه اضطر إلى الاستناد إلى الحقيقة وكان يقصد بالحقيقة "كل كلمة أريد بها ما وقعت له في وضع واضح وإن شئت قلت في مواضع لا يستند فيها إلى غيره^{٢١}" ولذا فالحقيقة هو الكلام الذي يتناول العالم أو الأشياء تناوياً مباشراً يكون كل لفظ فيه مفهوماً بلا حاجة إلى تأويل ولا إلى بحث عن معنى أو لفظ غائبين، على أن هذا الحد يجعل من اللغة واحدة في كل حقيقة وقد أكد ذلك بقوله "وهذه عبارة تنتظم الوضع الأول وما تأخر عنه^{٢٢}" وهو بهذا يلغي الفارق المهم بين اللغات التي تستعملها الأجيال فلغة العربي قبل الإسلام هي غيرها بعده بمائة عام تقريباً وما تغير فيها لم يكن اللفظة ومعناها بل الطريقة التي تتركب بها اللغة والتي تقود كل حقبة نحو قول ما وبشكل ما على الرغم من أن المقصود هنا كان تعريف الحقيقة من جهة اللفظ الواحد فاللفظ الواحد يتغير بتغير المنظومة اللغوية، صحيح أن معناه سيظل ثابتاً إلا أنه يتداخله مع غيره يكتسي أشكالاً جديدة لا متناهية، وحينما أراد أن يعرف الحقيقي بالنسبة إلى المجموع أو الجملة فإنه تناوّلها من ناحيتي الإثبات والنفي وناحية المثبت والمنفي^{٢٣} وكان يعني بهما أن الجملة المكونة من مسند إليه ومسند تقوم على إثبات الشيء أو نفيه والركن الثاني في الجملة هو إما مثبت أو منفي أعني أن الإثبات أو النفي وقعا عليه فإذا كان الإثبات في موضعه وحقه الذي ينبغي أن يكون فيه كان حقيقياً وإذا كان المعنى المثبت ثابتاً على الحقيقة ولم يعدل عنها كان حقيقياً أيضاً إذا كان الأول حقيقياً أي أننا يجب أن ننظر إليهما سوياً فإن كانا على الطريقة الحقيقية فهما حقيقيان وإن شذ أحدهما عن ذلك فهو من المجاز ويبقى الآخر حقيقياً.

والمجاز المفرد هو "كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول... وإن شئت قلت كل كلمة جُزّت بها ما وقعت له في وضع الواضع إلى ما لم توضع له من غير أن تستأنف بها وضعاً لملاحظة بين ما تجوز بها إليه وبين

الفرس اسماً آخر وهو الجحفة "٢٦"، والعلاقة هنا لا تقوم على المبالغة في التشبيه فلسنا نقول أن له جحفة كالشفة التي للإنسان ثم أننا نفهم الاستعارة هنا عن طريق اللفظ فقط، والصنف الثاني هو الاستعارة المفيدة وهو الذي يعتمد المبالغة في التشبيه ويعتمد على العقل في فهمه ومنه رأيت أسداً وتعني رجلاً شجاعاً كالأسد "٢٧".

يبدو أن الجرجاني يلح دوماً على القسمة على اللفظي والعقلي بل أنه قد يكون القسم لفظياً ولكنه بالجملة يكون عقلياً والأمر نفسه نلقيه هنا فالاستعارة غير المفيدة لفظية بينما الاستعارة المفيدة عقلية، ولكن قد تتحول اللفظية أو غير المفيدة إلى عقلية أو مفيدة حينما يراد بها أن تكون للمشابهة بمبالغة فيقال مثلاً للرجل إذا أريد عييه (جاءنا حافياً متشقق الأظلاف) والمعنى أنه جاء كما يجيء ذو الأظلاف وهي بهذا تكون استعارة عقلية أو معنوية لا لفظية لأنها جاءت على سبيل المبالغة في التشبيه.

التقسيم الثاني يأتي من جهة الألفاظ ذاتها وقد قال عنه بأنه قسمة عامية وأن كل قسمة هي أخص منها "٢٨" والاستعارة هنا إما أن تكون في الاسم أو أن تكون في الفعل واستعارة الاسم تنقسم على نقل الاسم عن مسماه الأصلي إلى مسمى آخر ثابت ومعلوم وذلك في قولك رأيت أسداً على سبيل المبالغة في التشبيه "٢٩" وقد مر معنا هذا القسم وكان استعارة عقلية معنوية مفيدة ومر معنا أيضاً في المجاز، والقسم الثاني من الاسم أن يُستعار من مسماه الأصلي لمسمى آخر لا يبين فيه شيء يشار إليه كقول الشاعر (إذ أصبحت بيد الشمال زمامها) "٣٠" فليس لدينا هنا ذات معلومة ولا شيء ثابت، ونقول فيها جعل للشمال يداً أي تصرفاً كتصرف الإنسان في الشيء فاستعار اليد ليلالغ في التشبيه على أن هذا القسم مما يقوم على التمثيل لا على التشبيه وذلك أنك " تجد الشبه المنتزع ههنا إذا رجعت إلى الحقيقة ووضعت الاسم المستعار في موضعه الأصلي لا يلفك من المستعار نفسه بل مما يضاف إليه "٣١" والإضافة هذه تعني أن يجتمع أكثر من أمر في إيضاح المشابهة وهو التمثيل كما سيتبين لاحقاً وذلك بدليل قوله: " وهذا الموضع يتجلى تمام التجلي إذا تكلم على الفرق بين التشبيه والتمثيل "٣٢".

وأما الفعل فقد كان الجرجاني متردداً في تقسيمه له ولكنه قسمه على الفعل الذي تكون استعارته من جهة فاعله والذي تكون من جهة مفعوله فالأول منهما هو نقل اللفظ لما ليس له في الأصل وهو يُثبت باستعارته له وصفاً شبيهاً بالمعنى الذي اشتق منه الفعل "٣٣" فقولك نطق الحال بكذا يعني أننا جعلنا الحال ينطق كما النطق عند الإنسان ولذا فالفعل هنا يرجع إلى المصدر وعلى هذا فالنطق هو المستعار وهذا يعني أن هذا القسم يعود إلى التقسيم الأول لأنه أصبح اسماً لا فعلاً، واستعارة الفعل من جهة مفعوله كقول ابن المعتز (قتل البخل وأحيا السامحاً) "٣٤" فالفعل قتل استعارة لأنه تعدى إلى البخل والمعنى أنه عمل مع البخل كما يُعمل القتل مع الأعداء.

الرجل والأسد ولذا نحتاج إلى التشبيه ثم أن لدينا عنصران هما الرجل والأسد بينما في ثانيهما فالعلاقة بين اليد والقدرة علاقة سببية ثم أن لدينا عنصران هما اليد وطولها لتمثلها بالقدرة أو اليد وفاعلها لتمثلها بالنعمة وهكذا.

ومجاز الجملة ينقسم قسمين أيضاً فإذا وقع المجاز في الإثبات فهو عقلي وإذا وقع في المثبت فهو لغوي "٢١" فإذا قيل أحيا الله الأرض فالمجاز هنا في المثبت أي أنه لغوي فالحياة أخذت موضع ما ليس بحياة وهو الخضرة والبهجة، وإذا قيل فعل الربيع النور فالمجاز هنا في منح الربيع فعل النور وهو عقلي أي أنه في إثبات الفعل للربيع، والجرجاني يفسر هذا التقسيم بأنك في المجاز اللغوي تثبت للحياة خضرة وبهجة وفي المجاز العقلي تثبت النور فعلاً للربيع أي جعلت الربيع يفعل النور بينما هناك جعلت الخضرة حياةً ففي العقل نضيف أمراً إلى أمر بينما لا نفعل ذلك في اللغوي.

ويبدو أن المجاز اللغوي يعتمد على التشبيه بينما يعتمد العقلي منه على التمثيل فلأن الخضرة تشبه الحياة استعملنا أحدهما مكان الآخر بينما في المجاز العقلي نحن بحاجة إلى القول بأن الربيع يفعل في الأرض أو في الوجود أمراً مثل النور في انتشاره وبعجته والدليل أنك لا يمكنك أن تثبت النور فعلاً للربيع إلا لأن ثمة فاعلاً معروفاً وهو الخالق جل جلاله وأنت لا بد أن تجعل نصب عينيك أنه الخالق لكل شيء والذي فعلناه هنا هو أننا قلنا بأن الربيع يفعل كما يفعل الخالق جل جلاله وهذا ما يتضمن إثباتاً للأصل أو الخالق الحق وليس المقصود في المجاز نفي الفاعل الحقيقي إذن وإنما التمثيل على سبيل فعله.

إلا أن الجرجاني يميز بعد ذلك بين المجاز في المفرد والمجاز في الجملة فيجعل مجاز المفرد لغوياً ومجاز الجملة عقلياً وليس هذا اختلاطاً أو وهم منه فالمقصود باللغوي والعقلي في جزئي الجملة كما سبق هو أنه يفهم من اللغة أو يفهم من العقل وأما إذا أردنا التسمية كاصطلاح فمجاز المفرد كله لغوي ومجاز الجملة كله عقلي إلا أن في المجاز العقلي هذا ما مأخذه اللغة وما مأخذه العقل "٢٢".

٢- الاستعارة

لقد رأينا بأن المجاز يقوم على المشابهة في ضريبه (التشبيه والتمثيل) وسنرى بأن الاستعارة تقوم أيضاً على المشابهة، فالاستعارة في كلام الجرجاني فرع من المجاز فكل استعارة مجاز وليس كل مجاز استعارة "٢٣" وبينهما علاقة عام بخاص فالمجاز أعم من الاستعارة "٢٤" وهو يعرفها بـ "أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغوي معروفاً... ثم يستعمله الشاعر... في غير ذلك الأصل وينقله نقلاً غير لازم فيكون هناك كالعارية "٢٥" ونقل اللفظ بهذا الشكل إما أن يكون مفيداً أو غير مفيد فغير المفيد هو نقل لفظ بدلاً عن لفظ آخر بينهما تشابه في المعنى واختلاف في الجنس كنقل الشفة من الإنسان إلى الفرس على الرغم من أن لشفة

يقسم الجرجاني التشبيه على البين الذي لا يحتاج إلى تأويل وعلى الذي يحتاج إليه والأول منهما هو أن يشبه الشيء بالشيء من حيث الحس "٣٩" بينما يحتاج الثاني إلى التأويل فنقول الحجة كالشمس في الظهور والألفاظ كالماء في السلاسة والفرق بينهما أن وجه الشبه حسي في الأول وبينما هو عقلي في الثاني وهذا يعني أن الأول منهما هو التشبيه والثاني هو التمثيل والتمثيل قد يكون من مجموع أمور ولذا يستند إلى التأويل أيضاً وهو نمط ثانٍ من التمثيل "٤٠".

وينقسم التشبيه على ما يرجع وجه الشبه فيه إلى نفسه والآخر يرجع فيه إلى غيره فتشبيه الكلام بالعسل في الحلاوة يعود فيه الشبه إلى الحلاوة اللفظية والحلاوة الذوقية وأما قولنا كالفابض على الماء أو الرافق في الماء فالشبه منتزع من القبض والماء أو الرقم والماء وليس من أحدهما على انفراد ولكي تفهم هذا النمط تحتاج إلى جملة تامة أو ما هو في حكمها لكي تشرح الشبه بينهما، أي أن نؤول أن جملة أو ما يشبهها محذوفة ها هنا فنعيدا إلى موقعها لكي نفهم المشابهة، وهذا يعني أن يكون التشبيه عقلياً، وأن يكون كذلك يعني أن المجموع مهم جداً في فهم وجه الشبه بل أنه أحياناً يتعلق بالترتيب المخصوص الذي يرد عليه الكلام وهو ما يخرج المشابهة نحو التمثيل.

وقد يأتي التمثيل بعد الفكرة الأساس للنص أو يأتي قبلها والجرجاني يسند ذلك إلى الظهور من الخفي إلى الجلي ثم أن ما يُعرف بالحواس أو الطبع هو أفضل مما يُعرف بالفكر والنظر قوةً واستحكاماً "٤١" وهو يجعل الأول أفضل من الثاني من حيث فائدته وذلك أنه يأتي بالمعاني أولاً ومن ثم يمثله بمثل فيتحول السامع من العقل نحو الحس.

وأما التشبيه فإن الجمال فيه أيضاً يكمن في تباعد المشبه والمشبه به فكلما كانا أبعد كان التشبيه أعجب وأما التمثيل فيجب فيه أن نجعل فكرة كاملة من مجموع كلام لنؤلف منها مثلاً مشاهداً فيكون جماله في التقريب لا بين جنسين أو شيئين على العموم بل بين فكرتين إحداها عقليةً والأخرى مُشاهدةً "٤٢".

وقد يأتي التشبيه خاصةً على صور منها المتعدد والمركب، فالمركب هو أن تتوضح الصورة عن طريق تركيب يتم بجمع لواحق يدرجها الكاتب مع ركني المشبه والمشبه به "٤٣"، والمتعدد هو تشبيه شيئين بشيئين والإتيان بهما على نسق واحد أو بذكر المشبهين ومن ثم المشبهين بهما "٤٤".

وعلى هذا الأساس احتاج الجرجاني إلى أن يعقد مقارنة بين التشبيه والتمثيل فالتشبيه المركب اقترب من التمثيل حداً احتاج معه إلى التمييز، وقد قام عنده التمييز على أن من الممكن قلب التشبيه أي تشبيه الوجه بالقمر وتشبيه القمر بالوجه بينما لا يمكن ذلك في التمثيل "٤٥".

ومن الملاحظ أن الفرق لم يكن يكمن في إلغاء أداة التشبيه ولا في استعمال اللفظ (مثل) فقد تستعمل الأداة (كأن) والتشبيه هو على سبيل التمثيل، والفرق الوحيد يكمن كما يرى هو في الفرق بين اللغوي

وبذا يتضح لنا بأن استعارة الفعل كله تعود إلى التمثيل فالمقصود في الأمثلة السابقة بأن الممدوح فعل مع البخل مثلما يفعل مع الأعداء من حيث القتل وأن الحال أظهرت منها ما كان كالنطق من الإنسان، وقد قلنا بأنها على التمثيل لأن المقصود هنا ليس التشبيه بين مشبه ومشبه به بل التمثيل بين حالين مركبين من كل، أو أن الأمر هنا لا يعتمد على لفظ واحد بل على الإضافة بين مجموعة من الألفاظ لكي يُفهم المعنى وعلى ذلك فاستعارة الفعل كلها من باب الاستعارة العقلية أو المفيدة.

والنقسم الأخير هو التقسيم من حيث القوة والضعف فنستعير لفظاً لشيء هو دون الشيء الأول لكي نبالغ في تشبيهه من هو أضعف بمن هو أقوى "٣٥" فنستعير الطيران لمن لا جناح له مشبهينه بالسرعة أو أن يكون الشبه مأخوذاً من صفة موجودة في المستعار منه والمستعار له على الحقيقة فنقول رأيت شمساً تريد رجلاً يتהלل وجهه كالشمس والفرق هنا أن جنس الإنسان غير جنس الشمس بينما الطيران والجري السريع من جنس واحد وهو الحركة إلا أن فيها ما هو أعلى وما هو دون، بينما ليس لدينا هنا اتفاق في الجنس بل لدينا تقريب فقط من هو دون مما هو أعلى "٣٦".

والقسم الأخير هذا قال عنه بأنه الصميم الخالص من الاستعارة وهو بأن يكون الشبه مأخوذاً من الصور العقلية كاستعارة النور للحجة والبيان "٣٧" فليس بينهما اشتراك في الجنس ثم أنهما ليسا حسيين فالنور مرئي نعم ولكنه أثرٌ من جسم مرئي ولا يمكن رؤية النور بل نرى بالنور والحجة غير مرئية ولذا فالصورة عقلية وهي على أصول أولها أن يؤخذ الشبه من الحس إلى العقل ومنه النور للحجة والبيان، وثانيها أن يؤخذ من الحس إلى الحس إلا أن الشبه عقلي ومنه الشمس للرجل يشبهه بالشرف والنباهة والشهرة، وثالثها أن يؤخذ من العقل إلى العقل ومنه تشبيه وجود الشيء بعدمه أو عدمه بوجوده كوصف الجهل بالموت ووصف المال بالخلود لأنه يخلد صاحبه إذا كان في عمل الخير "٣٨".

والجرجاني يغادر تصنيفاته التي لم يستقصها كلها نحو التشبيه ليوضح كيف تتبنى الاستعارة عموماً ولكي يكون ذلك تمهيداً له لتبيين الفرق بين الاستعارة والمجاز والذي سيحدث عنه لاحقاً، ويبدو لنا بأن الأقسام الثلاثة تنتمي كلها إلى العقل سواء كان المستعار منه والمستعار له حسيين أو عقليين أو ممتزجين، وأن الأقسام كلها هذه تعتمد التشبيه لا التمثيل وهذا ما حدا بالجرجاني أن يغادر كلامه عن الاستعارة نحو التشبيه ليبين المشكلات التي ارتسمت أمامه.

٣ - التشبيه

بعد أن تبيننا لنا الاستعارة والمجاز وتبين لنا منهما أن كلاهما بحاجة إلى أن نذكر لفظاً ونريد به شيئاً آخر غير معنى ذلك اللفظ على سبيل المشابهة، بعد ذلك يتبين لنا أن الاستعارة والمجاز يجريان في مجرى واحد وأنهما مخالفان للتشبيه فما هو التشبيه؟؟

نراه صحيحاً، وليس القصد هنا إبانة الزلل ذاته وجعله كل شيء فالجرجاني قادته نظرته التي سنتعرف عليها لاحقاً إلى هذا التوزيع للاصطلاحات وليس من نظرة تخلو من الزلل ولكننا نعيد المحاولة علّنا نقع على أخطائنا.

لقد تأجل موضوع ترتيب الأبواب الثلاثة إلى حين الاكتمال من العرض وها نحن أولاً بصدد العرض الكلي عبر رؤية الجرجاني ذاتها لننتقل من ثم إلى كيفية تجاوزه .

اعلم أن الجرجاني ابن عصره وأعني بكونه ابن عصره أن الرؤية التي قدمها كان يقدمها العصر بلسانه واعلم أيضاً أن العصر أو الحقبة المنتمى إليها لا فكاك منه (منها) له ولنا، كانت الحقبة تقضي كما قلنا بالانتقال من التركيب نحو التحليل وهذا ما برر له الابتداء بالاستعارة لينتقل إلى التشبيه ومن ثم إلى المجاز، والاستعارة تنتمي تصنيفياً إلى المجاز ومبدئياً إلى التشبيه وأعني أن الاستعارة جزء من المجاز اللفظي عنده ولكنها مبدئياً قائمة على التشبيه وهذا ما يؤكد كون الاستعارة نقل لفظ من مسمى إلى مسمى آخر على سبيل المبالغة في التشبيه وكون المجاز في الأصل استعمال لفظ في غير ما وضع له لملاحظة بين الأول والثاني وإذا كان هذا الاستعمال للفظ المفرد فإنه تم نقله عن مسماه الأصلي إلى مسمى آخر وهو الاستعارة بشرط أن تكون الملاحظة بينهما هي المشابهة بمبالغة .

لقد انتقلنا من الخاص نحو العام أي من الاستعارة نحو التشبيه ومن ثم نحو المجاز على اعتبار أن اللغة عامة وأن منها الخاص في الاستعمال وهو الفنون البيانية هذه وبذا تكون الاستعارة أخص الخاص، على أنه لم يعلق عليها كبير أمل وذلك لسببين أولهما لأن الاستعارة تقوم على التشبيه وهو كما قال شيخه أبو علي " شريعة منسوخة " ٤٩ " ويعني بذلك أن الفنون البيانية على عهد الجاحظ ومعاصريه كانت تقوم على التشبيه وكان رأسها، وأنه وشيخه في عصر لم يعد للمشابهة فيه قصب السبق بل أصبح للتمثيل وذلك لأن المعرفة على عهد الجرجاني اختطت طريقاً آخر غير طريق الشريعة المنسوخة القديم فبدلاً من أن تكون لديك أشياء في العالم الخارجي تكوّن منها فكرة على أساس التشبيه فإنك تتجه من فكرتك التي تمتلكها أساساً لتجد لها مثلاً أي لتمثلها في عالم الأشياء الحسية أو في عالم عقلي آخر .

وأما السبب الثاني فإن الجرجاني لما أراد الوصول إلى التمثيل الذي يقع وسطاً بين عالمي الحس والخيال ابتداءً بما يظهر أمامه من عالم الحس بالتشبيه والاستعارة وقد فضل الاستعارة من بينهما لأنها تقوم على المشابهة التي هي جنس بالنسبة إلى النوع (الاستعارة) ويكون بذلك متدرجاً من الحس عن طريق النوع نحو الجنس ليجد عنده التمثيل .

ولهذا قسم الجرجاني رؤيته التحليلية على قسمين العقلي والتخييلي فقد جعل الاستعارة من قبيل العقلي بينما جعل التمثيل من قبيل التخييل وبذا يكون الفكر في تلك الحقبة على ثلاثة أقسام أولها اللغوي وثانيها العقلي وثالثها التخييلي وجعل من اللغوي التشبيه

(التشبيه) والعقلي (التمثيل) وقد حدده أكثر - وهو ما نراه ملائماً لما يريده - باعتباره التمثيل انطلاقاً من العقل نحو الحس بينما التشبيه ينطلق من الحس نحو الحس أو نحو العقل .

واستمراراً في التشديد على إثبات التمثيل عقد مقارنة أخرى بين الاستعارة والتمثيل فقرر " إذا كان الشبه بين المستعار منه والمستعار له من المحسوس والغرائز والطباع وما يجري مجراها من الأوصاف المعروفة كان حقها أن يقال أنها تتضمن التشبيه ولا يقال أن فيها تمثيلاً وضرب مثل وإذا كان الشبه فيها عقلياً جاز إطلاق التمثيل فيها " ٤٦ " جاعلاً التمثيل هذه المرة مشتملاً على الاستعارة .

ويفرق فيما بعد بين التخييل وما يمكن أن نسميه التعقيل فالاستعارة والتشبيه طريقتان العقل بينما يتخذ التمثيل طريق التخييل " ٤٧ "، وهذا ما أحوجه إلى التمييز أيضاً بين التشبيه والاستعارة " ٤٨ "، على أننا لا نعدم اعتراضات كثيرة على هذه التعريفات والتمييزات مع إيماننا بأننا لم نكن على ما نحن عليه اليوم لولا الجرجاني رحمه الله .

٤ - تجريد وتجديد

بان لنا من خلال مسيرة تلخيصية مع الجرجاني بأنه جعل التشبيه قسمين هما اللفظي والعقلي وأطلق على أولهما اسم التشبيه الصريح وعلى ثانيهما اسم التمثيل وبان لنا أيضاً قسمة المجاز على هذين القسمين والاستعارة كذلك.

وبان لنا من القسمين أننا نفهم الأول منهما عن طريق اللغة بينما نفهم الثاني منهما عن طريق العقل وهذا هو وجه تسميتهما بهذين الاسمين، وعرفنا بأن ما طريقه اللغة يأتي من لفظة واحدة وأن ما طريقه العقل يأتي من مجموع ألفاظ تشكل جملة أو ما يشبه الجملة؛ ولم يحتف الجرجاني في كتابه بجزء كما احتق بالتمثيل؟! بينما ذكر الكناية عرضاً ولم يجعلها جزءاً من أجزاء البيان وجعل منه ما هو أدنى مرتبة كالحذف والتجنيس والمطابقة وغيرها.

ونلاحظ أثناء هذه المسيرة تداخل الأجزاء الثلاثة تلك فالمجاز اللغوي يضم بين دفتيه الاستعارة ومصطلحا التشبيه والاستعارة يتداخلان أحياناً فوضع لهما الكثير من القوانين والتعقيدات ليفرز كل واحد منهما عن الآخر حتى وصل به الأمر أحياناً إلى تجويز إطلاق الاصطلاحين على فن واحد، كما أن التمثيل والاستعارة يتداخلان ويصلان حدّاً يصعب التمييز بينهما، ويتداخل كذلك كل من التشبيه والتمثيل مع المجاز ؟ أفلا يمكن وضع تصنيف بارز لهذه الأجزاء الثلاثة يوقف مشكلة التداخل؟.

ليست مهمتنا هنا أن نصح ما وقع فيه الجرجاني من أخطاء إن كانت ثمة، بل أن مهمتنا أن نعيد التصنيف حتى لا نقع في الأخطاء ذاتها وحتى يمكن معها السلامة من الزلل وإعادة بناء الفنون على ما

(الكناية) وهو تفكر تام في اللغة وما علينا سوى أن نعيد تركيب علاقاته بعد إعادة النظر في البيان والبلاغة واللغة عموماً .

البيان ينتمي إلى منظومة أوسع هي منظومة البلاغة العربية والتي ترتفع في وجودها بعلمي اللغة والنحو وهما علمان سابقان عليها تتأسس هي عليهما فهي تجمعهما في تركيب جديد كل الجدة لا يعود يشبه أيًا منهما على الرغم من أنه هما، ولذا فالبلاغة تنقسم على أركان البيان والمعاني والبديع (كما تقرر على يد السكاكي والقرطاجني من بعده) وهي قسمة لا يمكن - أو ليس غرضنا الآن - تجاوزها ، اللهم إلا إعادة التقنين للركنين الباقيين وهو ما لسنأ بصده الآن .

والبيان يقوم على أركان أربعة أولها يتعلق باللفظ المفرد وثانيها يتعلق بأكثر من لفظ أو بجملة وثالثها يتعلق باللفظ وعلاقته بألفاظ أخرى حاضرة أو غائبة ورابعها يتعلق بأكثر من لفظ وعلاقته بألفاظ أخرى حاضرة وغائبة وبمعنى مخالف لطبيعتها أو لمعناها كألفاظ .

ولنبتدئ بالركن الثاني منها وهنا نستطيع أن نضع التشبيه لأنه يتعلق بلفظين في جملة تربطهما أداة سواء أكانت هذه الأداة حاضرة أم غائبة وسواء أكان وجه الشبه حاضراً أم غائباً وسواء أكان المشبه حاضراً أم لا وقد قلنا بأن هذا الركن يتعلق بالجملة ولم أكن أعني أنه يتعلق بالجملة من حيث بنائها بل أنه يتعلق بالجملة أو ما يشبهها من حيث أنها تحتوي على أكثر من لفظ ففي قولنا هو كالأسد تكتمل جملة مكونة من مبتدئ وخبر وفي قولنا رأيته أسداً فقد اكتملت الجملة والمهم فيها هو حضور الركنين (الهاء) و(الأسد) ولولاهما لم يكن للجملة وجود، ولم أكن أعني بذلك أنك لا يمكن أن تكون جملة إلا بالتشبيه بل قصدت إلى أن من البيان ما يتعلق بالجملة وأعني بحضور أكثر من لفظ واحد على علاقة بيانية بلفظ آخر يجب أن يكون حاضراً معه وإن غاب فعلياً .

وفي الركن الثالث نستطيع أن نضع الاستعارة وذلك أنها مما يفهم من لفظ واحد ولكن في سياق جملة فإذا قلت: (جاء أسد) وتعني رجلاً فإننا نتحدث عن لفظ بياني واحد هو الأسد وقد انخرط في جملة تامة ولكن لهذا اللفظ علاقة بالحاضر من العناصر اللفظية (جاء) وبالغائب منها (الرجل) فالأصل جاء رجل كالأسد وقد كانت كل من (جاء) و(رجل) ألفاظاً حقيقية بينما كانت (أسد) تشير إلى الرجل .

وفي الركن الرابع نستطيع أن نضع الكناية فقولنا (كثير رمد القدر) جملة أساساً وهي تحتوي على مجموعة ألفاظ تشير بمجموعها إلى عناصر لفظية وإلى معنى غائب فالأصل فيها (هو كريم) على المعنى والأصل فيها على اللفظ (هو رجل كريم) دليل كثرة رمد قدره) وهي ما يسمى الكناية عن الصفة (الكريم) والأمر نفسه مع المجاز فقولنا (له يد علي) تعني له نعمة عليّ على المعنى والأصل على اللفظ (له نعمة عليّ) كانت يده سبباً أو واسطاً لها) وليس باستطاعتنا أن نقول (له رجل علي) كما لا نستطيع أن نقول (كثير صخور

وجعل من العقلي الاستعارة والمجاز وجعل التمثيل فقط من التخيل وكلها تنبني على ركن أول وهو الحقيقة على الرغم من أن التشبيه منه عقلي ومنه لغوي وكذلك الاستعارة والمجاز إلا أنه على العموم يعيد صياغتها على أساس العقلي واللغوي ذاته جاعلاً من التمثيل منفرداً في التخيل لا يشاركه فيه غيره .

وعلى هذا وبعد أن نستبعد ركن الحقيقة الذي وضعه ميزاناً لمعرفة المجاز وكيفية ابتدائه من الكلام الحقيقي فقال بأن المجاز في مقابلة الحقيقة "٥٠" أقول على هذا يتكون لدينا ثلاثة أركان وهي المجاز والاستعارة العقليان والتشبيه اللغوي والتمثيل التخيلي، وبعد أن قرر بأن التشبيه سريعة منسوخة أصبحنا ننقل من المجاز والاستعارة المستندين إلى الحقيقة وهما عقليان نحو التشبيه اللغوي وهذا طريق أول والطريق الثاني ينطلق من التمثيل التخيلي نحو التشبيه .

ولكي نثبت ذلك فإن الجرجاني ذكر مراراً بأن التشبيه أصل وغرض بالنسبة إلى الاستعارة والمجاز وأنه أصل أيضاً في التمثيل ولكننا بدلاً من أن ننقل فيه مما هو حسي نحو الحسي فإننا ننقل فيه مما هو تخيلي نحو ما هو عقلي أو لغوي لنقترب من الحس فيكون الحس بالنسبة إلى التمثيل مرآة تكشف عنه وتبينه، والتشبيه هو من الحس أقرب ولذا كان في المرحلة الوسطى بين المجاز بصنفيه وبين التمثيل .

والجرجاني يحتفي أيضاً وإن كان بدرجة أقل بالاستعارة للسبب ذاته وهو كونها مما يحذف فيها ركن التشبيه وأن سبيلها المبالغة ولذا هي ترتقي درجة فوق المجاز لتتحو نحو التخيل عبر اللفظ وما هو لفظي (التشبيه) .

هل يمكننا الاعتماد على تقسيم كهذا للأركان البيانية ولطريقة انبناء علاقاتها؟، ألا يمكن لنا أن نقوم تقسيماً آخر بعيداً عن تقسيم الجرجاني وعن تقسيم المتأخرين من بعده؟ نعم يمكن ذلك بالتأكيد ما دام موضوع تقسيم هذه الأركان ووضع الحدود لها يعتمد على روح العصر التي ننطلق منها .

لم يعد بالإمكان الحديث عن طريقين أحدهما يصعد من المجاز وثانيهما يهبط من التمثيل ولم يعد بالإمكان قسمة المعرفة على الحقيقة واللفظ والعقل والخيال، ولم يعد بالإمكان أخيراً أن نقسم ما نراه بين العقلي واللغوي، فكل ما يمثل أماناً هو اللغة واللغة فقط، والمؤلف سواء أكان شاعراً أم كاتباً يفكر فيها وبها ولها وأعني بذلك أنه يفكر أو يعقل بواسطتها وأن تعقله ذاك هو تعقل فيها وفي مفاهيمها وعلاقاتها، وهو تعقل في النهاية متجة إليها فيصيبها ما يصيبها وتتحو عبر ذلك فقط لتشكل روح العصر .

لم تعد اللغة أداة ولا العقل مشرفاً عليها ولا الخيال صانعها فلفغة عقلها وخيالها وهو المبدع فينا وعلى هذا يمكن أن نبحت فيها ونسألها عن حالها اليوم لنخرج لنا ما تراه ملائماً مما يصورها اليوم لنا .

ولكن لم يعد بالإمكان اليوم تجاوز ما رسمه البلاغيون المتأخرون عن الجرجاني للبيان واصطلاحاته في القسمة الثلاثية (التشبيه، الاستعارة ،

يتخلف وما يُتطَبَّب به وغيرها والقدر يعني الطبخ ويعني الجمع ويعني الشبع وغيره والوجوه الأساس (القوة وخالي الجذوة والطبخ) لم يعد لنا معها أي عمل، فهكذا تغيب الألفاظ بوجوهها ووجوهها الأساس لتصبح كأنها لا تحيل إلى أي شيء وأصبحت بمجموعها تحيل إلى معنى آخر مخالف تماماً لكل الوجوه وهو الكرم، وهنا نتساءل: بَم وكيف ولم تُفَيِّت مجموعة من الألفاظ عن معناها تماماً وحل محلها معنى شمولي يقود المجموع نحو ما لا علاقة لها به؟ ولها مع ذلك وجهان وجه يحيل إلى الحقيقة ووجه آخر يراوغ خلفه ويحيل إلى معنى آخر، هو أيضاً حلول إقصائي ومؤقت ومرتهن بزمان ولكنه على غير إرادة المجموع بل دون وعيه فالمجموع يعتقد بأنه يسير نحو معناه بينما يسير نحو فراغ بالنسبة له ونحو امتلاء لمعنى مخالف تماماً.

وهنا أجد لزماً علي أن أعود إلى الأركان السابقة لأوضح بعض التفصيلات لأعود إلى هذا الركن الأول الأخير من جديد، فالتشبيه ينقسم على قسمين أولهما التشبيه الذي يستند في وجوده إلى وجود وجه مشترك بين شيئين فليس علينا معه سوى أن نقول أن كذا يشبه كذا في كذا من وجوهه وأعني بالوجه المشترك أن من ضمن وجوه الأسد الشجاعة ومن ضمن وجوه الإنسان الشجاعة أيضاً فنتم مشابهما عبر جمع الوجوه المتشابهة.

والثاني التمثيل - باصطلاح الجرجاني مع أننا لا نفضل استعمال هذا الاصطلاح لدلالته على فكر لا يلائمنا - وهو الذي لا يقتصر في مشابهته على وجوه لفظ واحد بل مجموع ألفاظ كقول الشاعر (الشمس كالمرأة في كف الأشل) فنحتاج هنا إلى جمع وجوه المرأة وكف الأشل ونشابههما بأحد وجوه الشمس وهو الارتجاج وهذا معنى لا يؤديه لفظ المرأة على حاله ولا لفظ كف الأشل على حاله بل أن مجموعهما هو الذي يؤديه ومن الملاحظ هنا أن الأداة هي أداة التشبيه، وإنما أردت أن أبين أنني أقصد بالتمثيل هذا النوع من التشبيه ليس إلا وليس المهم فيه تقريب الخيال من الحس أو غيره بل المقصود أن التشبيه هنا لا يحصل إلا بعد جمع وجهين للفظين فيتشكل لدينا مشبه به يقترب من المشبه أو العكس.

وبين هذين الوجهين نلاحظ وجود قوة جعلت من الممكن التقريب بين وجهين للفظين وهي قوة تقصر هذا الوجه من هذا اللفظ على أن يواجه وجهاً آخر للفظ آخر نسبيها هنا قوة التشبيه أو الجمع.

والأمر نفسه مع الاستعارة فهي تنقسم على قسمين الاستعارة المفردة والاستعارة المركبة "٥١" والأول كنحو (جاء أسد) وتعني رجلاً والفرق بينه وبين التشبيه أنك تجعل الرجل أسداً أي أنك تجعل الوجه الأساس له وتشير في الوقت نفسه إلى بقية الوجوه فتجعله حاملاً إياها أيضاً وأنت بذلك تنفي ماهيته الأساس وتعطيه ماهية أخرى على سبيل النفي والمنح أو الاستبدال لا على سبيل المشابهة.

والقسم الثاني أن تجعل من لفظين أو أكثر استعارة للفظ آخر غائب فتجمع اللفظين وتستنتج منهما

القدر) أو (كثير القدر) كناية عن حجم القدر أو حجم الطعام وفي جملة (هي أطولكن يداً) كان الأصل هي أكرمك على المعنى، و (هي تمد يديها وأنتن تضممنها فهي تعطي وأنتن تبخلن وهي بذلك تمد يديها أطول من أيديكن كرماً).

وأما بالنسبة إلى المجاز المفرد فهو يندرج أساساً في الاستعارة وقد جعلناها قائمة بذاتها وأما بالنسبة إلى التمثيل فليس بينه وبين التشبيه فرق لأنه ليس لدينا سوى عناصر حاضرة في جملة أو أكثر يفسر بعضها بعضاً ولنا حاجة إلى استدعاء أصل في اللفظ ولا في المعنى ولذا يمكن دمجه بالتشبيه وهو عين ما فعله الجرجاني شكلياً، سواء كنا ننطلق من العقل نحو الحس أو العكس أو كنا في نطاق الحس فقط أو في نطاق العقل فقط ففي كل الأحوال لدينا عنصران نعقد بينهما علاقة ما وكلاهما حاضران وليس لهما أية علاقة بما غاب لا لفظاً ولا معنى.

وبقي لدينا الركن الأول وهو كالركن الأخير بالنسبة للأركان الأربعة إلا أننا وضعناه في المقدمة من أجل إيضاح التنقلات فقط من الجزء نحو الكل أو من المفرد نحو المجموع وفي هذا الركن نبحت في اللفظ فقط دون علاقاته بما يجاوره من عناصر حاضرة ولا بما يستدعيه من عناصر غائبة.

يمكن تناول اللفظ من نواح ثلاث، ناحية وجوه التي يقتضيها وناحية ماهيته أو الوجه الأساس له وناحية انتقاء هذا الوجه عنه وفي الناحية الأولى نستطيع تفسير وجه الشبه بين عنصرين في التشبيه فمن المعلوم أن للأسد وجوهاً هي الجرأة والبسالة والإقدام والسرعة والافتراس وغيرها وعبر هذه الوجوه نستطيع تقريبه من أي لفظ آخر كالرجل وغيره وإذا استطعنا معرفة تلك الوجوه استطعنا أن نلّم به، على أن نسال بَم وكيف استطاع اللفظ أن يحمل كل هذه الوجوه التي تصل حد التناقض أحياناً (الجن مثلاً يعني الأسود والأبيض) وهي وجوه غير متناهية لأنها مرتبطة بالاستعمال فكل استعمال لها في موضع جديد يعني إكسابها وجهاً جديداً ولا علاقة للفظ بالمواضع بل ليست المواضع إلا استعمالاً جازت لغيرنا فلم لا تجوز لنا؟

وفي الناحية الثانية نستطيع تفسير الاستعارة فنعلم بأن الشجاعة هي الناحية الأساس في الأسد ونحن نريد جعل الرجل أسداً في شجاعته فعملنا على استبدال لفظ مكان آخر من ناحية الشجاعة فقط، على أن نتساءل كذلك بَم وكيف ولم يُخَلِّي اللفظ موضعه للفظ آخر لكي يحل محله وليعود بعد ذلك إلى أصله في الاستعمال؟ وهو حلول إقصائي أولاً ومؤقت ثانياً ومرتهن بزمان ثالثاً؛ إنه تقصص تمثيلي فقط.

وفي الناحية الثالثة نستطيع تفسير الكناية فنعلم أن الكثرة والرماد والقدر لم تعد هي كما كانت عليه بل أنها تركت وجوهها كلها وغادرت وجوهها الأساس واحتملت وجهاً جديداً بمجموعها فالكثرة قد تعني القوة والغلبة في موضع وقد تعني عدم النفع في موضع آخر وقد تعني الاندماج في موضع ثالث وهكذا والرماد يعني ما لا نفع فيه وما ذهب عنه جذوته وما

حسب رأينا اليوم هو ما ينطلق من الأشياء ليحلل ما في العقل ويزيده وضوحاً وينميه فضلاً عن معرفتنا المسبقة بأن العقل يقودنا نحو ما يريده هو .

- البحث ما يزال في بدايته ويحتاج إلى إعادة نظر مرات ومرات وإلى مناقشات وتطبيقات للتأكد من شموله النصوص الأدبية كيفما وردت وإلا فالبحث قاصر عن أداء مهمته ، ولكن هذا ما لا يتسع له البحث هنا .

- البحث قائم على فرضية أولى مفادها أن الجرجاني اعتمد على النظام النحوي في معرفة البيان عموماً والبحث يرى بأن ذلك مما لا يمكن إثباته فالبين عموماً يعتمد على اللفظ المفرد وعلاقته بالألفاظ الأخرى الغائبة والحاضرة في النص لا من حيث التركيب النحوي بل من حيث الدلالة .

- كأن البحث يعود إلى ما قبل الجرجاني وأعني إلى الجاحظ في نمط تفكيره ولكنه يلغي هذه المرة ما ألغاه الجرجاني نفسه من الحديث حول الفصاحة الذي لم يعد يمكن وضعه ربما مع البيان.

- إذا نجحت فرضية فرز الفنون البينانية على هذا الشكل وبعد تطبيقات واسعة نعتقد بأن البيان سيغدو بياناً حقيقياً وأنه سيكون منعزلاً عن الفرعين المرادفين المعاني والبديع ونكون قد دخلنا جنة البيان الحقيقية .

هوامش البحث

- ١- ينظر البلاغة للمبرد ٢٦ والبديع لابن المعتز ٦ .
- ٢- ينظر البيان والتبيين ١: ٣٥ و ٧٦ والحيوان ١: ٤٥ .
- ٣- ينظر دلائل الإعجاز ١٠٦ .
- ٤- أسرار البلاغة ١٤ .
- ٥- يبدو أن أول من أطلق هذا المصطلح هو المصري في تحرير التعبير ١٥٩ ومن ثم القزويني في الإيضاح ٢٥٩ .
- ٦- ينظر أسرار البلاغة ٥ و ١٣ .
- ٧- ينظر نفسه ١٤ .
- ٨- نفسه ٤ .
- ٩- نفسه ١٤ .
- ١٠- ينظر أسرار البلاغة ٣٦٢ .
- ١١- نفسه ١٥ .
- ١٢- نفسه ١٥ .
- ١٣- أسرار البلاغة ٢٢ .
- ١٤- ينظر في هذا الخلاف بين فلسفة الكندي التركيبية وفلسفة الفارابي التحليلية طبقات الأمم صاعد الأندلسي ٨٢ وإخبار الحكماء للقفطي ٢٤١ .
- ١٥- أسرار البلاغة ٣٠٣ .
- ١٦- نفسه ٣٠٣ .
- ١٧- ينظر نفسه ٣٢٠ .
- ١٨- نفسه ٣٠٤ .
- ١٩- ينظر أسرار البلاغة ٣٠٤-٣٠٥ .

معنى ثم تثبته للفظ آخر مواز ومنه (خلق فلان نوراً) وتريد: وضع للناس علماً مثلاً، والخلق فعل من أفعال الباري عز وجل والنور وجه من وجوه العلم وكلاهما وجهان أساسيان وتريد بهما (وضع للناس نوراً يهتدون به أو مناراً) فتجمع وجهين أساسيين لتستخلص منهما معنى عبر علاقة بين النور والخلق خفية ويحيل هذا المعنى إلى ألفاظ أخرى، وقوة الاستعارة هنا هي قوة سلب ومنح وجمع .

وأخيراً فالكناية تنقسم أيضاً على قسمين أولهما الكناية الإستعارية وهي التي نستطيع تفسير عناصرها أو ألفاظها انطلاقاً من الاستعارة وهنا يدخل المجاز فقولنا (له يدٌ عليّ) ونعني نعمة فإن اليد هنا استعارة ولكن ليس كل عضو في الإنسان يمكن أن يستعمل على سبيل الكناية ولأننا لا نستطيع إطلاق اليد في النعمة أينما حللنا أصبحت اليد هنا مع (له) ومع (عليّ) تحمل معنى آخر إلا أننا يمكن أن نفهم ذلك المعنى من اليد والتي تقتضي أن يكون أحد وجوهها النعمة أو المساعدة أو الإعانة وتخصيص النعمة عبر الاستعارة ساعدنا على فهم المجاز أو الكناية هنا .

وأما القسم الثاني فهو ما يسمى بالكناية وهو أن لا يكون أي عنصر من العناصر الحاضرة يحمل أي طابع استعاري كقولنا (بعيدة مهوى القرط) فربما تخيل البعض أن القدر في (كثير رماد القدر) تحيل على الكرم وأما هنا فليس في البعد ولا المهوى ولا القرط أي دليل على طول العنق ولا على الجمال إلا إذا أخذنا العناصر كلها وجمعنا وجوه هذه إلى وجوه تلك واستنتجنا استنتاجاً بأن اللفظ غاب عن معناه وغاب عن علاقته بما يجاوره وارتعن إلى ما لا يماثله إطلاقاً وأصبح جزءً من مجموع لا يستطيع منه فكاكاً والقوة هنا قوة سلب وجمع ونفي .

النتائج

بعد هذا الجهد اليسير وهذه الجولة السريعة في بيان الجرجاني الذي طالما كثر النقاش والجدل حوله أزعج بأنني فسرت وأنها أود أن أختتم بجملة من النتائج التي ترتبت عن البحث والنتائج التي يقتضيها وهي:

- لقد وجدنا بأن الجرجاني لم يضع التشبيه والاستعارة والمجاز فقط ضمن بيانه بل أنه أضاف إليه جملة أمور تتعلق بالحضور والغياب وأنه لم يتناولها لأنها لا تمثل سوى مسائل ثانوية في البيان وأن الأساس إنما يكمن في الاستعارة والمجاز وأن الرابطة بينهما إما أن تكون التشبيه أو التمثيل .

- أن الجرجاني وضع أماناً فرضيات ولم يمنعنا مع ذلك من وضع فرضياتنا فقد وضع ما وضع على أساس من تفكيره المرتين بحقيقته ويجب علينا اليوم أن نضع تفكيرنا ونمطه في المقدمة لكي ننتج فرضياتنا نحن .

- أن شكل التفكير العام للجرجاني لم يعد ملائماً وأعني به الانطلاق من العقل نحو الأشياء بل أن الطريق الصحيح

- ٢٠- نفسه ٣٠٨ .
- ٢١- ينظر نفسه ٣٢٢ .
- ٢٢- قارن الكلام بين ٣٢٢ و ٣٠٥ وما بعدها .
- ٢٣- ينظر أسرار البلاغة ٣٤٦ .
- ٢٤- ينظر نفسه ٢١- ٢٢ .
- ٢٥- نفسه ٢٢ .
- ٢٦- ينظر نفسه ٢٣ .
- ٢٧- ينظر أسرار البلاغة ٢٤- ٢٥ .
- ٢٨- ينظر نفسه ٣٤ .
- ٢٩- ينظر نفسه ٣٤ .
- ٣٠- ينظر نفسه ٣٤ والبيت للبيد من معلقته المشهورة .
- ٣١- أسرار البلاغة ٣٦ وينظر نفسه ٣٨ .
- ٣٢- نفسه ٣٧ .
- ٣٣- ينظر نفسه ٣٩ .
- ٣٤- ينظر نفسه ٤٠ وشعر ابن المعتز ١ : ٤١٩ .
- ٣٥- ينظر أسرار البلاغة ٤١ .
- ٣٦- ينظر نفسه ٤٦- ٤٧ .
- ٣٧- ينظر نفسه ٤٩ .
- ٣٨- ينظر نفسه ٥٧ وما بعدها .
- ٣٩- ينظر أسرار البلاغة ٧١ .
- ٤٠- ينظر نفسه ٧٥- ٨١ .
- ٤١- ينظر نفسه ١٠٢- ١٠٣ .
- ٤٢- ينظر نفسه ١٠٩- ١١١ .
- ٤٣- ينظر أسرار البلاغة ١٥٧ .
- ٤٤- ينظر نفسه ١٦٨ .
- ٤٥- ينظر نفسه ١٧٧ وما بعدها .
- ٤٦- نفسه ٢٠٨ .
- ٤٧- ينظر أسرار البلاغة ٢٤٣ .
- ٤٨- ينظر نفسه ٢٧٨ .
- ٤٩- نفسه ٢٦٦ يتحدث عن التشبيه .
- ٥٠- ينظر نفسه ٣٥٨ .
- ٥١- لم أقل عند حديثي عن التشبيه بالتشبيه المركب لئلا يختلط علينا أمره مع التشبيه المركب المعروف وهو ما لا أريده .
- ٥- البلاغة لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد تحقيق درمضان عبد التواب مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٨٥ .
- ٦- البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مطبعة الخانجي ، مصر- القاهرة، د.ط، د.ت .
- ٧- تحرير التحرير للمصري ، دار نهضة مصر ، القاهرة، د.ط ، د.ت .
- ٨- الحيوان لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، القاهرة، د.ط ، ١٩٨٣ .
- ٩- دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، تعليق وشرح محمد عبد المنعم خفاجي ، مكتبة القاهرة - مصر ، ط ١ ، ١٩٦٩ .
- ١٠- الرسالة
- ١١- شعر ابن المعتز صنعة الصولي ، دراسة وتحقيق يونس أحمد السامرائي ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، د.ط ، ١٩٧٨ .
- ١٢- طبقات الأمم ، لأبي القاسم صاعد بن أحمد الأندلسي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت- لبنان، د.ط ، ١٩١٢ .
- ١٣- الكامل في اللغة والأدب ، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد، تعليق أبي الفضل إبراهيم والسيد شحاتة ، دار نهضة مصر للطبع والنشر، د.ط ، د.ت .

مصادر البحث

- ١- إخبار الحكماء بأخبار العلماء ، جمال الدين علي بن يوسف القفطي ، مطبعة السعادة- مصر ، ط ١ ، ١٣٢٦هـ .
- ٢- أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني نشر وتصحيح محمد رشيد رضا ، دار الكتب العلمية ، مصر القاهرة ، د.ط ، ١٣٢٠ هـ .
- ٣- الإيضاح للقزويني ، دار الطليعة ، بيروت - لبنان ، د.ط ، ١٩٧٤ .
- ٤- البديع لعبد الله بن المعتز ، نشر وتعليق كراتشكوفسكي، دار الحكمة، حلبوني - دمشق، د.ط ، د.ت .